

دراسات لغوية لإعجاز أسلوب القرآن الكريم  
البلاغة الأسلوبية للأداة "إذا" الشرطية غير الجازمة  
في سورة الإسراء

أ.بن عمار محي الدين  
قسم اللغة العربية وآدابها  
جامعة البليدة 2

ملخص البحث:

مما لا شك فيه أن قضية إعجاز القرآن الكريم، قد استنفرت ألباب النحويين والبلاغيين، فغاصوا في لغة القرآن وبلاغته يكتشفون منها درره ونفائسه، ويحددون أوجه إعجازه، وروعة مناحيه البلاغية والأسلوبية الجمالية والفنية؛ مما فجر بعد ذلك ما عرف بنظرية النظم عند الباقلاني وعبد القاهر الجرجاني بصورة أخص، وكان من بين تلك الأساليب القرآنية -التي شددت انتباهي- أسلوب الشرط وأحكامه، وقد تفنن القرآن في تصويره وتطريزه، وتفريع أحكامه وأدواته، فعزمت -بذلك- التنقيب عن جزئية من جزئيات هذا الأسلوب، الأدوات الشرطية غير الجازمة، واخترت منها الأداة "إذا"، وذلك في الآيات: الخامسة والسابعة والرابعة بعد المائة من سورة الإسراء، فجاء هذا البحث مقسما إلى مبحثين أساسيين؛ الأول يعنى بالمعاني النحوية الإعرابية، والثاني يختص بالمعاني الزمنية البلاغية.

**Abstract:**

There is no doubt that the issue of miracles of the Quran, has mobilized cores Syntactical sand Albulageyen, Fgasoia in the language of the Koran and eloquence discover them Drrh and Nvaish, and identify aspects of likeness, the splendor of Mahaneh rhetorical and stylistic aesthetic, artistic; sparking then what is known as systems

theory when Albaqlani and Abdul omnipotent Jorjani More specifically, and was among those methods Quran - which attracted my attention - a method the condition and its provisions, has sophisticated Koran in the filmed and Ttrisah, and subsidiarity provisions and tools, Vazmt - so - exploration subset of molecules this method, the tools conditional non-assertive, and you choose which tool " If, "and that in the verses: the fifth and seventh and fourth per cent of Surat Al-Isra, came to this research is divided into two sections, the foundations; I mean syntactic grammatical meaning, and the second regard the meanings of time rhetoric.

### إشكالية البحث:

يحاول هذا البحث أن يجيب عن الأسئلة التالية -قدر المستطاع- وهي : إذا كان القرآن الكريم معجزا في نظمه وأساليبه، فبماذا تميز عن العرب الفصحاء في استخدام أسلوب الشرط؟ وفي توظيف أدواته؟ سواء في أحكامها النحوية، أو في دلالاتها الشرطية البلاغية، ما داموا قد اشتهروا بالتفنن في هذا الأسلوب وغيره، والدراسات النحوية -قديمها وحديثها- قد استوفته دراسة ومنهجاً وتأليفاً؟ وعلى ماذا اعتمد في تجديد معانيها ودلالاتها؟ هل تدل "إذا" الشرطية على مجرد التعليق المستقبلي في النحو القرآني - كما هو مشهور عند النحاة العرب - ؟ أم أن هناك معاني نحوية وبلاغية ابتكرتها الصياغة القرآنية ، واستقل بها نظم الآيات في السورة القرآنية الواحدة؟ وما دلالة ذلك على قضية إعجاز القرآن الكريم لغة وأسلوباً؟

## مدخل عام: إعجاز أسلوب الشرط في القرآن الكريم

تتميز أسلوب القرآن الكريم بوجوه كثيرة في إعجازه، عسر على العلماء استقصاؤها جميعا، مما دفع السيوطي إلى القول: «والصواب أنه لا نهاية لوجوه إعجازه»<sup>(1)</sup> ودفع السكاكي أيضا إلى القول: «اعلم أن إعجاز القرآن الكريم يدرك ولا يمكن وصفه»<sup>(2)</sup>.

والحقيقة أن إعجاز القرآن الكريم جانبان: جانب تاريخي، وهو عبارة عن «تلك المقدمات والوقائع الدالة على وقوع التحدي بالقرآن في التاريخ – وبخاصة في زمن النزول»<sup>(3)</sup>، وجانب موضوعي، وهو عبارة عن تلك الوجوه التي صار بها القرآن معجزا، وقد نص كثير من العلماء أن التحدي وقع في نظم القرآن وأسلوبه<sup>(4)</sup>، ومن بين ما عرف من أساليبه أسلوب الشرط، ولذا استدعت الدراسة الإشارة إلى المفاهيم التالية: الإعجاز الأسلوب، مفهوم الشرط ودلالته، التعريف بموضوع سورة الإسراء ودروسها، وأغراضها السياقية و الزمانية.

### 1/ الإعجاز الأسلوب للقرآن الكريم:

إعجاز القرآن - كما يقول الزرقاني<sup>(5)</sup> - مركب إضافي، معناه بحسب أصل اللغة: إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به، «فالقرآن المعجز هو البرهان القاطع على صحة النبوة»<sup>(6)</sup>.

فإعجازه قد وقع فيما نبغت به العرب من فصاحة الألفاظ، وبلاغة الكلام، أو ما عبر عنه مصطفى صادق الرافعي بإعجازه «في نظمه ووجه تركيبه واطراد أسلوبه»<sup>(7)</sup> وهذا ما يجر إلى الحديث عن مفهوم أسلوب القرآن الكريم:

1-1- مفهوم الأسلوب: يطلق الأسلوب في اللغة على سطر النخيل، وعلى كل طريق ممتد، وكذلك على الوجه والمذهب، والفنون المختلفة<sup>(8)</sup>.

وأما اصطلاحاً: فيطلق على: «الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه، واختيار ألفاظه ومفرداته، أو هو المذهب الكلامي الذي انفرد به المتكلم في تأدية معانيه ومقاصده من كلامه، أو هو طابع الكلام أو فنه الذي انفرد به المتكلم كذلك»<sup>(9)</sup>.

1-2- أسلوب القرآن الكريم: وهو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه، ولا غرابة أن يكون للقرآن أسلوب خاص به<sup>(10)</sup>، وهو - في ذلك (الأسلوب) - غير المفردات والتراكيب - وإن كان جزءاً منه -، فهو يهتم بالطريقة والصياغة الخاصة للقرآن الكريم لجميع مفرداته وألفاظه وتراكيبه، صياغة محكمة موحدة، كأنها سبحة بديعة رصفت فيها حباتها رصفاً متآلفاً متناسقاً ومتربطاً، فأسلوب القرآن الكريم بهذا متمم بخصائص عديدة، بدءاً من دقة وجمال نظامه الصوتي وانتهاءً بجودة سبكه وجودة معانيه ووضوحها وقوتها<sup>(11)</sup>.

## 2- مفهوم الشرط وبيان دلالاته:

1-2- التعريف: يطلق الشرط في اللغة على معنيين أساسيين: الأول: علامة الشيء الدالة عليه، وإليه أشار ابن فارس<sup>(12)</sup> والرازي<sup>(13)</sup> وغيرهما. والثاني: إلزام الشيء والتزامه بصورة معينة كما أشار إلى ذلك ابن منظور<sup>(14)</sup>.

وأما في الاصطلاح، فقد عرفوه تعريفات كثيرة تتفق أغلبها في أن يقع الشيء لوقوع غيره، أي يتوقف الثاني على الأول، قال أبو البقاء: «الشرط: تعليق حصول مضمون جملة بحصول مضمون جملة أخرى»<sup>(15)</sup>، وعرفه الرضي بأنه «ما يطلب جملتين، يلزم من وجود مضمون أولهما فرضاً حصول مضمون الثانية؛ فالمضمون الأول مفروض ملزوم، والثاني لازمه»<sup>(16)</sup>.

وشرط صحة التعليق بين الشرط وجوابه أن يكون على ما هو ممكن جائز الوقوع كالقيام والقعود، لا على المستحيل كالجمع بين الضدين، ولا واجب على الوقوع كطلوع الشمس، والعلة في ذلك أن الشرط «مأخوذ من العلامة، وأنه علم على مشروطه، والعلامة لا تكون مستحيلة، ولا يجب أن تكون واجبة، بل جائزة، هذا هو الأصل في الشرط» (17).

وقد يكون الشرط سببا في الجزاء، كقوله تعالى: [وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم] (18)، كما قد يقع لمجرد الدلالة على اقتران أحدهما بالآخر، كقوله تعالى: [وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا] (19)، إذ لا يجوز «أن تكون الدعوة سببا للضلال، ولا مفضية إليه، ولا أن يكون الضلال مفضيا إلى الدعوة» (20).

2-2- دلالة الشرط: ذهب النحاة إلى أن الشرط يفيد الاستقبال، وإذا كان فعله ماضيا؛ فإن أدواتها تقلب الماضي إلى الاستقبال (21)، ولا يفيد عندهم الماضي، وما ورد من ذلك فهو مؤول.

والصواب كما هو مذهب المحققين (22)، أن الشرط قد يأتي للمضي أيضا، يدل على ذلك الاستعمال الفصيح بما لا يقبل التأويل؛ وذلك إذا كان بلفظ (كان) بعدها فعل ماضٍ، نحو قوله تعالى: [إن كنت قتلته فقد علمته] (23)، والمعنى: «أنك تعلم ذلك إذا صدر مني، فإنه لا يخفى عليك شيء» (24)، والنحاة يؤولون ذلك على أنه: إن ثبت أنني كنت قتلته، أو إن يثبت في المستقبل أنني قتلته في الماضي (25) يعقب على ذلك الدكتور فاضل بقوله: «وهو تأويل بعيد؛ فكيف يقول لربه: إن يثبت في المستقبل، وفي خطاب الله عز وجل، وهل الله جاهل ذلك وقت الخطاب حتى يثبت له في المستقبل» (26)، وبعض النحاة يصرح بأنه قليل الاستعمال (27).

وقد يدل الشرط -أيضا- على الحال، بالإضافة إلى الماضي والاستقبال، كقوله تعالى: [قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين] (28).

- 2 -

أولاً: بلاغة المعاني النحوية للأداة "إذا" في سورة الإسراء:

إن إعجاز القرآن الكريم في نظمه يعني أن كل كلمات الآية هي في موقعها المكين؛ من حيث مراعاة معاني النحو من فاعلية ومفعولية وابتداء وخبر وغيرها، وأن هذا التعلق والتألف بينها هو الذي يميز النظم القرآني عن سائر النظم الأخرى، ولذلك أكد الجرجاني بقوله: «اعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علماً لا يعترضه شك علمت أن لا نظم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض» (29)، ويقول أيضاً: «فهذه الطرق والوجوه في تعلق الكلم بعضها ببعض، هي كما تراها معاني النحو وأحكامه» (30).

فليس الغرض هنا بيان الوجوه الإعرابية للآيات القرآنية التي تضمنت الأداة "إذا" الشرطية غير الجازمة فقط، وإنما -إضافة إلى ذلك- بيان العلاقة الوطيدة بين هذه المعاني النحوية المتنوعة، وتبيين كيفية تأسيسها لإعجاز النظم القرآني وجمالياته.

والنحاة على أن "إذا" من الأسماء، وهي ظرف لما يستقبل من الزمان، فيكون الفعل بعدها ماضي اللفظ مستقبل المعنى، ويمتنع -عندهم- أن يليها اسم مرفوع، وإذا ورد فإنه يؤول بفعل مضمر محذوف يفسره ما بعد ذلك الاسم، وسنقف من خلال الآيات المقبلة على هذه التخريجات الإعرابية.

1- في قوله تعالى: [فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا]، الآية 05.

التوجيه الإعرابي:

"فإذا" الفاء عاطفة، و"إذا" ظرف للمستقبل ضمن معنى الشرط مبني في محل نصب متعلق بالجواب "جاء": فعل ماضٍ، "وعد": فاعل مرفوع، "أولاهما" مضاف إليه مجرور بالكسرة المقدرة والهاء مضاف إليه، والجملة في محل جر بالإضافة، "بعثنا" ماضٍ و"نا" فاعله، والجملة جواب الشرط لا محل لها من الإعراب<sup>(31)</sup>، "عليكم" جار ومجرور متعلق بـ "بعثنا"، "عباداً" مفعول به منصوب، "لنا" جار ومجرور متعلق بنعت لـ "عباد"، "أولي": نعت ثانٍ منصوب بالياء<sup>(32)</sup>، واعتبرها الهمذاني صفة وحيدة لـ "عباد"<sup>(33)</sup>، "بأس" مضاف إليه مجرور، "شديد" نعت مجرور، "فجاسوا"، الفاء عاطفة، و"جاسوا" فعل ماضٍ، و"الواو" فاعله، والجملة معطوفة على جملة "بعثنا"، "خلال" ظرف منصوب متعلق بـ (جاسوا)<sup>(34)</sup>، "الديار" مضاف إليه مجرور، "وكان" الواو: اعتراضية أو حالية، (كان): فعل ماضٍ ناقص، واسمه مستتر -هو- "وعداً" خبر كان منصوب، "مفعولاً" نعت منصوب، وجملة "كان ومتعلقاتها" اعتراضية أو حالية<sup>(35)</sup>.

### التوجيه البلاغي الإعرابي:

التأمل في مواقع هذه المعاني النحوية داخل الآية يجزم بإمكانها لمواقعها، بحيث لو حدث تقديم أو تأخير في بعض مواقعها لاختل النظم من أساسه، فاستحقت "إذا" صدر هذه الآية -مع اقترانها بالفاء العاطفة- لتعلقها بالآية التي قبلها. أولاً باستخدام الفاء للدلالة على سرعة حلول العقاب عليهم بالبعث<sup>(36)</sup>، كما يفيد معنى الفاء العاقبة. وثانياً بتعلق "إذا" بـ "قضينا" في الآية التي قبلها، تحقيقاً لهذا الحكم الرباني المقسم عليه، ولذلك قال أبو حيان: «... وقضينا إلى بني إسرائيل بفسادهم في الأرض وعلوهم، ثم أقسم على وقوع ذلك، وأنه كائن لا محالة»<sup>(37)</sup>، فلو أخرت لما أفادت هذا التعلق المعنوي، ثم أردفها بالفعل الماضي "جاء" للتأكيد على وقوع هذا القضاء الرباني في المستقبل (آنذاك)، ثم يلاحظ تعلق (وعد أولاهما) بـ (جاء) لأنه المتوقع صدوره بعد ذلك، كما أن

إضافة "وعد" إلى "أولهما" هي إضافة بيانية، أي: موعد أولاهما؛ «لأن الوعد قد سبق ذلك» (38)، والموعود هو العقاب» (39).

كما أن الضمير في قوله "أولاهما" راجع ومتعلق بالمرتين في الآية السابقة، ثم وقع الموعود مباشرة بعد هذا الوعد بقوله "بعثنا" المتعلق بالعظمة، ثم عدي هذا الفعل بحرف الاستعلاء (على) لتضمينه معنى التسليط<sup>(40)</sup>، ثم أردف ذلك بذكر أسباب من وقع بهم العذاب "عبادا" مع إضافتهم إلى ضمير العظمة الربانية للدلالة على أنهم مملوكون لله، ثم نعتهم بأنهم "أولي بأس شديد" للدلالة على قوتهم وبطشهم في إبادة بني إسرائيل، ولو لم ينعتوا هنا لما دل على هذا، ثم أوضح آثار بطشهم وقوتهم وشدتهم فقال: "فجاسوا" بإيثار لفظ "الجوس" للدلالة على دقتهم في تتبع المقاتلة، بالتخلل في البلاد وطرقها ذهابا وإيابا كما يفيد لفظ "الجوس"<sup>(41)</sup>، وهذا من المقضي متعلق بـ "بعثنا"، وأوضح معنى الجوس بقوله "خلال الديار"، مع تعريف الديار تعريف العهد إشارة إلى بيت المقدس، ثم ختم الآية بما وعد بتحقيقه تأكيدا بوقوعه فقال: (وكان وعدا مفعولا)، فلو حدث تقديم وتأخير في مواقع هذه الآية النحوية لما أفادت هذه المعاني الدقيقة المتألفة فيما بينها.

2- في قوله تعالى: [...] فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتِيرًا [الآية 07].

### التوجيه الإعرابي:

"إن: شرطية جازمة أحستتم: فعل ماض مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء فاعله، والجملة استئنافية أحستتم: مثل الأول جواب الشرط، لأنفسكم" جار ومجرور متعلق بـ "أحستتم" الثاني، والواو عاطفة، وإن أسأتم" مثل إعراب "إن أحستتم"، ومعطوفة عليها، "فلها" (الفاء) رابطة، و(لها) جار ومجرور متعلق بخبر لمبتدأ محذوف تقديره (إساءتكم)، والجملة في محل جزم جواب الشرط،

"فإذا جاء وعد الآخرة": مثل: "فإذا جاء وعد أولهما" في الآية 05، والجملة معطوفة على "إن أحستتم"، وجملة (جاء..) في محل جر بالإضافة، وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب الشرط الأول في الآية 05، تقديره: بعثنا عليكم كما نص أبو حيان في البحر (2 4).

"ليستوا" (اللام) للتعليل، و(ليسوءوا) فعل مضارع منصوب بحذف النون بعد "أن" مضمرة، والواو فاعل، والمصدر المؤول من "أن"، والفعل في محل جر باللام متعلق بجواب الشرط المحذوف (3 4)، أي: بعثناهم ليسوءوا، "وجوهكم" مفعول به منصوب والكاف مضاف إليه "وليدخلوا المسجد": (الواو) عاطفة، "ليدخلوا المسجد" مثل: "ليسوءوا وجوهكم"، ومعطوفة، "كما" الكاف حرف جر للتشبيه، و"ما" مصدرية، "دخلوه" فعل ماضٍ، والواو فاعله، والهاء مفعوله، "أول" مفعول مطلق منصوب، "مرة" مضاف إليه مجرور، والمصدر المؤول من "ما دخلوا" في محل جر بالكاف متعلق بمفعول مطلق محذوف، أي: دخولا كدخولهم أول مرة، "وليتبروا الواو عاطفة، ليتبروا" مثل ليسوءوا" ومعطوف عليه، "ما" موصولة مفعول به، "علوا" فعل ماضٍ والواو فاعل والجملة صلة الموصول "ما" لا محل لها من الإعراب، "تتبراً" مفعول مطلق منصوب (4 4).

### التوجيه البلاغي الإعرابي:

لا يزال النظم القرآني يتألف نحويًا في هذا الموضع والمقطع، وتصدير هذه الآية (07) بالشرطية الجازمة "إن" له تعلق بالآيتين السالفتين (5 و7)؛ فتعلقه بالآية (5) من حيث أن الوعد الرباني لا يزال مستمر التفاصيل، وهذا آخره كما كان الوعد نفسه في الآية (5) أوله، "فإذا جاء وعد الآخرة" متعلق بقوله: "مرتين" ثم بقوله "فإذا جاء وعد أولهما"، فهذه الجملة "إن أحستتم" من جملة المقضي في الكتاب مما خوطب به بنو إسرائيل (5 4)، وهنا يظهر سر في هذا النظم عجيب، وهو أن

المقضي به كان إفساد بني إسرائيل في المرة الأولى "لتفسدن"، وكان الإساءة ثانياً، وتصديره بالإحسان للدلالة على توبة بني إسرائيل من إفسادهم الأول<sup>(46)</sup>، ثم عقب على كل منهما بالموعود الرباني، ببعث العباد أولي البأس الشديد في الأولى والثانية بهذا الترتيب النحوي الدقيق (فعل1+جزاء1، ثم فعل2 + جزء2)، ثم عدل عن الاسم الظاهر (لأنفسكم) إلى المضمّر الدال عليه (لها)، ومن غير إعادة لجواب الإساءة كما أعاده مع جواب الإحسان، ولم يقل (عليها) ليدل هنا على «طريقة التجريد، بأن جعلت نفس المحسن كذات يحسن لها لا لقصد نفع ولا ضرر»<sup>(47)</sup>، بخلاف آية فصلت: [مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ]<sup>(48)</sup>، إذ لما كان المقدر هنا اسماً كان المجرور بعده مستقراً غير حرف تعديّة، فجرى على ما يقتضيه الإخبار من كون الشيء المخبر عنه نافعاً، فيخبر عنه بمجرور اللام، أو ضاراً يخبر عنه بمجرور بـ إلى<sup>(49)</sup>.

ثم فرع على هذا قوله: (فإذا جاء وعد الآخرة)، وتقديره: فإذا أسأتم وجاء وعد المرة الآخرة، فقد حصل به إيجاز بديع قضاء لحق التقسيم الأول في قوله: (فإذا جاء وعد أولهما) ولحق إفادة ترتب مجيء وعد الآخرة على الإساءة، ولو عطف بالواو كما هو مقتضى ظاهر التقسيم إلى مرتين فاتت إفادة الترتب والتفرع<sup>(50)</sup>، ثم كيف قابل الآخرة هنا بـ أولهما هناك، ثم كيف حذف جواب إذا هنا المقدر آنفاً: بعثناهم عليكم، ولو ذكره لكان إطناباً وعبثاً في الكلام، مع أنه واضح ذهنياً لتعلقه، بأفعال العباد المبعوثين ليسوءوا، ليدخلوا، ليتبروا، ثم لتأمل كيف قرن هذه الأفعال الثلاث بلام التعليل لا بلام الأمر، وذلك «لاتفاق القراءات المشهورة على كسر اللامين الثاني والثالث دون تسكينهما»<sup>(51)</sup>، ليجعل التعليل نتيجة استلزامية لأفعال بني إسرائيل المفسدة "لتفسدن"، أسأتم، ثم بلاغة هذا الترتيب الدقيق بين توالي هذه الأفعال الثلاث لتدل على إلحاق الذل والإهانة أولاً ثم دخولهم المسجد الأقصى ثم إفسادهم له، وكيف أضمر هنا العباد

المبعوثين ليدل على تغايرهم عن العباد المبعوثين أول مرة، ثم ليدل على البعد الزمني بينهما بطريق الإيجاز، وكيف وظف أيضا هنا كاف التشبيه، ليقرب البعث الثاني، من البعث الأول، في حجم الغزو وقوته، ولتأمل أيضا كيف ختم هذه الآية بتوظيفه للصلة وموصولها، ثم للمفعولية المطلقة للدلالة على كثرة الإهلاك، وعظمة الاستيلاء والغلب الموصول ببعثة الله هؤلاء العباد الجبارين.

3- في قوله تعالى: [وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا] الآية 104.

#### التوجيه الإعرابي:

"وقلنا" الواو عاطفة، "قلنا" فعل ماضٍ، و"نا" فاعله، والجملة معطوفة على جملة (أغرقناه) في الآية السابقة، "من بعده" جار ومجرور متعلق بـ "قلنا" وألهاء" مضاف إليه، "لبنينا" جار ومجرور بالياء متعلق بـ "قلنا"، "إسرائيل" مضاف إليه مجرور بالفتحة، "اسكنوا" أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والجملة مقول القول في محل نصب، "الأرض" مفعول به منصوب، "فإذا" الفاء عاطفة، وإذا" ظرف للمستقبل متضمن معنى الشرط متعلق بالجواب، "جاء" فعل ماضٍ، "وعد" فاعل مرفوع (2 5)، "الآخرة" مضاف إليه مجرور، وجملة "جاء" في محل جر بالإضافة، "جئنا" فعل ماضٍ و"نا" فاعله، والجملة جواب الشرط لا محل لها، "بكم" جار ومجرور متعلق بـ "جئنا"، "لفيفا" حال منصوبة من الضمير في "بكم" (3 5).

#### التوجيه البلاغي الإعرابي:

استفتح النظم في هذه الآية بأمر المقول (قلنا)، مع عطفه على الآية السابقة على قوله: "فأغرقناه"، وكان ذلك بالواو العاطفة الدالة على الترتيب، وقد يظن ظان أن هذا الترتيب الوجودي كان مستغرقا لزمن بعيد، فأردف النظم ذلك تعقيبا ونفيا له بإثبات الجار والمجرور (من بعده)، أي: من بعد هلاك فرعون،

فاستحق بعد ذلك أن يذكر المخاطبين بهذا القول، فكان أولئك في قوله: "لبنى إسرائيل" بهذا الوصف دون وصفهم بأتباع موسى -عليه السلام- أو قومه، إظهاراً لفضل أبيهم، وامتناناً عليهم، ثم عقب ذلك بذكر محل الأمر "أسكنوا الأرض" لمطلق الأرض -بهذا الاستغراق الذي أفادته "أل" الجنسية- «إشارة إلى أن فرعون كان يريد محوهم عن الأرض، أو إلى أن سكانهم مع وجوده كان عدماً، لما بهم من الذل»<sup>(54)</sup>، ونص ابن عاشور أن "أل" هنا للعهد، أي: «أرض الشام المعهودة لبني إسرائيل بوعد الله إبراهيم إياها»<sup>(55)</sup>، ويبدو -والله أعلم- أنها غير معلمة بالشام فقط، لدلالة آخر الآية عليها "لَفيْفاً" كما سنعرف ذلك لاحقاً، ثم علق إرجاعهم إلى الأرض المقدسة بالشرطية "إذا" المرتبطة بالفاء التعقيبية، إشارة إلى ضالة الزمن عند الله تعالى، وأنه كواقع محققاً، وأردفه بالفعل الماضي (جاء) للدلالة عليه، ثم أردفه بمحله "وعد الآخرة" أي موعد القيامة أو قبل القيامة بقليل كما سنعرف لاحقاً.

وتأمل كيف عبر بالفعل "جئنا" كجواب للشرط "إذا" بعد اكتمال الإخبار بهلاك فرعون، وأمر بني إسرائيل سكن الأرض، ولم يقل "أتينا"، لأن المجيء يدل على الصعوبة والشدة، والإتيان يدل على السهولة في ذلك<sup>(56)</sup>، وذلك كقوله تعالى: [قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ يَمَّا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ \* وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ]<sup>(57)</sup>، فالحق سهل طبع على كل نفس، والعذاب شاق عليها، وأسنده إلى ضمير العظمة تناسبا مع ذلك، وختم الآية بالحال "لَفيْفاً" مختلطين إلى الأرض المقدسة للتمييز بينهم والحكم عليهم، وبهذه المعاني النحوية الدقيقة، كان النظم القرآني هنا متمسماً بالإعجاز التناسقي والجمال اللفظي.

ثانياً: بلاغة المعاني البلاغية (السياقية الزمانية) للأداة "إذا" الشرطية غير الجازمة.

للأداة "إذا" الشرطية غير الجازمة معان كثيرة، أهمها المعاني الزمنية التي تقتضيها، ولضيق المقام فإننا سنتقصر على بيان هذه المعاني الزمانية لهذه الأداة الواردة في آيات الصراع من سورة الإسراء.

أكد النحاة أن "إذا" تصرف الزمن إلى الاستقبال، سواء من الماضي أو المضارع، وهو ما ينطبق على الآيتين 5 و7 من سورة الإسراء، لكن بداليتين مختلفتين، ففي قوله تعالى: [فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا] (5 8)، يدل ذلك على حتمية وقوع الموعود به، تناسبا مع إيراد الوعد، ولذلك قال أبو حيان: «...وقضينا إلى بني إسرائيل بفسادهم في الأرض وعلوهم، ثم أقسم على وقوع ذلك، وأنه كائن لا محالة» (5 9)، فالله عز وجل أعلم بني إسرائيل بفسادهم في الأرض، في تاريخهم المستقبلي وذلك مرتين، «وأنه سيرسل عليهم أمة تغلبهم وتقتلهم وتذلهم، ثم يرحمهم بعد ذلك» (6 0)، ومعاذ الله أن يخلف وعده فيما يخبر به عباده، قال الزمخشري: «وكان وعد العقاب وعدا لا بد أن يفعل» (6 1).

وقد اتجهت آراء المفسرين الاجتهادية إلى أن المرة الأولى، كانت بتسليط البابليين عليهم بزعامة بختنصر، الذي أبادهم سنة 588 ق.م (6 2).

وهذا الزمن المستقبلي، هو زمن قريب إلى إفساد بني إسرائيل الأول، ثم رحمهم الله وأعادهم إلى فلسطين مرة أخرى، وهنا اتجهت آراء المفسرين الاجتهادية في أن إفساد بني إسرائيل الثاني قد وقع في قتل الأنبياء خاصة سيدنا زكريا ويحيى -عليهما السلام- وقيل: بقتل النبي أشعيا -عليه السلام- (6 3)، وأن الوعد الثاني قد وقع أيضا، على يد الإسكندر كما نقل أبو حيان (6 4)، وقيل: على يد الملك البابلي جودردو كما نص أبو السعود (6 5)، وقيل مطلقا على يد الدولة الرومانية كما جزم ابن عاشور (6 6)، وقدر أبو حيان الزمن بين الإفسادين بـ «مائتا سنة

وعشرين سنة، وقيل: سبعون سنة»<sup>(67)</sup>، وهذا الزمن المستقبلي الذي أفادته "إذا" الشرطية في الآية 7 (فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم...) هو زمن قريب على حسب عبارة هؤلاء المفسرين.

لكن نص الميداني في تفسيره<sup>(68)</sup> أن الزمن هنا زمن بعيد الاستقبال، وأن المدة الثانية لإفساد بني إسرائيل لم تقع أيامهم الفوائد -وهو الراجح-، إذ قال: «لكني رأيت أن بني إسرائيل لم يكن لهم علو في الأرض بعد عهد سليمان -عليه السلام- وذيول عهده»<sup>(69)</sup>، إذ أن موعد العقاب الأخير مقترن بإفسادهم الثاني: ولذا جزم -احتكاما إلى السياق العام للسورة وموضوعها- أن هذا الإفساد الثاني وقع في عصرنا الحاضر بقوله: «فالذي أراه أن ما عليه اليهود الآن هو المرة الثانية إفسادا وعلوا كبيرا في الأرض»<sup>(70)</sup>.

- آخر السورة يصدق أولها : ووحدة السياق في أن هذا الصراع لم ينته ، وأنه لا تزال المعركة الفاصلة بين المسلمين واليهود، دلت عليه أواخر سورة الإسراء في قوله تعالى: [فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا]<sup>(71)</sup>، أي: قبل القيامة بيسير، وهذا الإعلام -كما قال- الميداني «من الإعلام بالمستقبلات إعلاما لحيا»<sup>(72)</sup>.

- ثراء الزمن الشرطي في القرآن : وهذا يعبر -في حقيقة الأمر- عن استمرارية الزمن القرآني، بدءا من الماضي وصولا إلى المستقبل؛ بل وانصرافه زمنا عاما، وهذا ما تدل عليه القرائن في الآيات القرآنية المسوقة في ثنايا هذه السورة

- بشرى للفئة المجاهدة بين الأمس واليوم: من معاني "إذا" الشرطية البلاغية إفادتها التحقيق والالتحام في وقوع الأحداث المستقبلية، وفي ذلك أغراض بلاغية سياقية، كالتعجيل بالمسرة والتبشير بانتصار الإسلام في المستقبل القريب منه أو البعيد، وإدخال الأمل في نفوس المستضعفين من المسلمين آنذاك، خاصة وأن

هذه السورة -سورة الإسراء- من السورة المكية التي نزلت في عهد الاستضعاف، وتعرض المسلمين لعذاب ونكال قريش، وذلك تمثيلاً لهم بقصص بني إسرائيل، وذلك من أجل أخذ العبرة للمسلمين اليوم في صراعهم مع اليهود؛ إذ أن هناك تشابهاً بين مسلمي أمس ومسلمي اليوم - المرابطين منهم في فلسطين الجريجة - في التمسك بالحق، والتعرض لأذى الأعداء - مشركين كانوا أم يهوداً - ، ثم في حتمية انتصار المتأخرين كما انتصر الأولون، وبالمقابل فإن في هذه الآيات الواردة فيها الشرطية "إذا" إنذاراً للمشركون واليهود، وتعجيلاً لهم بالمساءلة والهزيمة، والنكال إن هم أصروا على معاداة الله ورسوله، سواء ذلك في قوله تعالى: [فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ] <sup>(7 3)</sup>، أو في قوله: [...] فإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأُوا مِمَّا عَلَوُا تَثِيرًا] <sup>(7 4)</sup>، أو في قوله تعالى: [وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا... ] <sup>(7 5)</sup>، أو في قوله تعالى: [وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا] <sup>(7 6)</sup>، ولذا نص ابن عاشور أن في هذه الآيات إنذاراً للمشركون في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- تمثيلاً لهم بما فعله الله ببني إسرائيل <sup>(7 7)</sup> -ولا يزال-، وأن هذا الخبر «مقصود لذاته باعتبار ما يتضمنه من التحذير من الوقوع في مثل هذه الحالة الموصوفة» <sup>(7 8)</sup>.

### خلاصة عامة: ويمكن إجمالها في النقاط التالية:

1. تميز القرآن الكريم وإبداعه في توظيف هذه الأداة وغيرها من الأدوات الأخرى، كل في موقعه المكين من النظم، وعلى حسب العلاقات الوطيدة بين هذه المعاني النحوية، داخل الآية القرآنية، بل إن هذا التماسك النظمي، وأن هذا السبك المحكم قد سرى في كل آيات السورة، ونسج بين خيوطها العريضة نسجاً محكماً، فإذا هي بعد ذلك -وحدة نظمية واحدة-.

2. كما تمثل -أيضا- هذا الإعجاز القرآني في التنوع والثراء الزمني لهذه الأداة الشرطية، غير مقتصر على زمن واحد (الاستقبال) كما جزم به النحاة، هذا التنوع الزمني لابسه أيضا تنوع ثري في المعاني والأغراض البلاغية التي صاحبت هذه الأدوات في منحى تصاعدي مستمر، يجمع بين طلاقة الزمان، وعمق معالجة نفس الإنسان، وتنوع الأساليب البلاغية من حذف وإضمار وإيجاز ووصل وعطف وغيرها، بنمط أسلوبى فريد من نوعه، ومتسم بدرجات عالية من الجزالة والفصاحة غير متفاوتة، خلبت ألباب النحاة واللغويين.

3. أن الأدوات الشرطية - عموما - لا تحدد زمن الفعل تحديدا ما، فقد يدل الفعل معها على الماضي وهو مضارع، وقد يبقى على مضيه، وقد يصرف إلى الاستقبال، كل ذلك يتحقق وفق السياق اللغوي والاجتماعي (79)، الذي يرد فيه هذا التركيب، أما أن هذا التركيب الشرطي خاو من الزمان؛ لأن أفعالها خالية من الأحداث، فاستنتاج خارج عن نطاق اللغة وبعيد عن طبيعتها؛ إذ دل على خلاف ذلك وضوح التأثيرات الزمنية لأداة الشرط في تنوع الزمن داخل الجملة الشرطية (80).

4. من النتائج المهمة هنا أن دراسة أزمنة هذه الأدوات أفعالها في القرآن الكريم هي دراسة وظيفية دلالية، لا تكتفي بالفعل وحده، أو بالأداة التي تسبقه أو تلحقه، بل تعتمد في المقام الأول على الملابس والسياق الذي يتحرك فيهما الفعل والجملة الشرطية عموما، ولهذا انتبه بعض المفسرين، وجاءت دراستهم التفسيرية -تبعاً لذلك- شاملة، ودقيقة، وممتعة، محاولة بذلك الكشف عن إعجاز القرآن الكريم وجمالياته على المستوى النظمي، وهذا ما برع فيه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره "التحرير والتنوير".

5. من أهم الملاحظات التي نختتم بها هذا البحث، ضرورة الوصل بين علوم اللغة المختلفة في دراسة قضية لغوية معينة، بين البلاغة والنحو وعلم البيان، هذا من جهة، ثم وصلها وتطبيقها على آي القرآن الكريم -مستودع الإعجاز البلاغي والنحوي- وبيانها في دراسات مستفيضة ومتكاملة، فيما يعرف عند أهل الاختصاص بالدراسات البيانية، فهي مهمة جدا في الدرس اللغوي، وفي التعليم الجامعي.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

#### هوامش البحث:

- (<sup>1</sup>) معترك الأقران في إعجاز القرآن: السيوطي، ت. علي البجاوي، دار الفكر العربي، 1/3.
- 2 مفتاح العلوم: أبو يعقوب يوسف السكاكي، ت. عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، ص526.
- <sup>3</sup> مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه، عدنان محمد زرزور، دار القلم، ط2، ص145.
- <sup>4</sup> كالباقلاني والجاحظ والخطابي وعبد القاهر الجرجاني وخلق كثير.
- <sup>5</sup> مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزرقاني، ط. دار الحديث، 2/277.
- <sup>6</sup> مقدمة كتاب الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي: محمود شاكر، ط. دار الفكر، ص18.
- <sup>7</sup> إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، مؤسسة الكتب الثقافية، ص128.
- <sup>8</sup> ينظر: لسان العرب، ابن منظور، ط، دار صادر، 1/473، مادة (سلب).
- <sup>9</sup> مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق، ص/253.
- <sup>10</sup> المرجع نفسه.
- <sup>11</sup> ينظر في ذلك: مناهل العرفان للزرقاني، المرجع نفسه، 2/258-276.
- <sup>12</sup> معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس، ت. عبد السلام هارون، 3/260.
- <sup>13</sup> مختار الصحاح: محمد الرازي، ط. دار الفكر، مادة (ش ر ط)، ص294.

- <sup>14</sup> لسان العرب: ابن منظور، مادة (ع ه د)، 3/ 312.
- <sup>15</sup> الكليات: أبو البقاء الكفوي، مؤسسة الرسالة، ص 255
- <sup>16</sup> شرح الكافية لابن الحاجب: الرضي الاستراباذي، دار الكتب العلمية، 2/ 108.
- <sup>17</sup> الصعقة الغضبية في الرد على منكري العربية: سليمان الطوفي، ت. محمد الفاضل، مكتبة العبيكان، الرياض، ص 532.
- <sup>18</sup> سورة محمد، الآية 36
- <sup>19</sup> سورة الكهف، الآية 57.
- <sup>20</sup> معاني النحو: فاضل صالح السامرائي، ط. دار الفكر، 4/ 55.
- <sup>21</sup> حاشية الخضري مع شرح ابن عقيل، دار الفكر، 2/ 122.
- <sup>22</sup> معاني النحو: فاضل صالح السامرائي، مرجع سابق، 4/ 64.
- <sup>23</sup> سورة المائدة، الآية 116.
- <sup>24</sup> تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، دار الفجر للتراث، ط1، 2/ 180.
- <sup>25</sup> ينظر: حاشية الخضري، مرجع سابق، 2/ 122.
- <sup>26</sup> معاني النحو، فاضل صالح السامرائي، 4/ 64.
- <sup>27</sup> شرح الكافية، الرضي الاستراباذي، 2/ 293.
- <sup>28</sup> سورة البقرة، الآية: 93.
- <sup>29</sup> دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، ت. محمود شاكر، ط. مكتبة الخانجي بالقاهرة، ص 55.
- <sup>30</sup> المصدر نفسه، ص 87.
- <sup>31</sup> ينظر: الجملة النحوية نشأة وإعرابا وتطورا: فتحي الدجني، مكتبة الفلاح، ص 123.
- <sup>32</sup> إعراب القرآن الكريم: عبد الله علوان وآخرون، درا الصحابة، 2/ 1242-1243.
- <sup>33</sup> الفريد في إعراب القرآن المجيد: الهمذاني، ت. فؤاد خيمر، دار الثقافة، 3/ 259.
- <sup>34</sup> إعراب القرآن: أبو جعفر بن النحاس، دار الكتب العلمية، 2/ 265.
- <sup>35</sup> إعراب القرآن الكريم: عبد الله علوان وآخرون، مرجع سابق، 2/ 1243.
- <sup>36</sup> كما سنعرف أثناء توجيه المعاني البلاغية السياقية لهذه الآية.
- <sup>37</sup> البحر المحیط، أبو حيان، 6/ 8.
- <sup>38</sup> أي: هو متعلق بـ «قضيينا» في الآية السابقة.

- <sup>39</sup> البحر المحيط: أبو حيان، 9/6.
- <sup>40</sup> تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، ط. مؤسسة التاريخ الإسلامي، 14/25.
- <sup>41</sup> نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: برهان الدين البقاعي، 4/336.
- <sup>42</sup> البحر المحيط: أبو حيان، 6/10.
- <sup>43</sup> الفريد في إعراب القرآن المجيد، الهمداني، 3/260.
- <sup>44</sup> إعراب القرآن الكريم: عبد الله علوان، 2/1243-1244.
- <sup>45</sup> تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، 14/28.
- <sup>46</sup> إذ ذلك متعلق بقوله: (ثم رددنا لكم الكرة عليهم...) الآية 06.
- <sup>47</sup> تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، 14/28.
- <sup>48</sup> سورة فصلت، الآية 46.
- <sup>49</sup> تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، 14/29.
- <sup>50</sup> المصدر نفسه.
- <sup>51</sup> البدر الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريق الشاطبية والدرى: عبد الفتاح القاضي، ت. أحمد عناية، دار الكتاب العربي، ص 188.
- <sup>52</sup> المرجع نفسه.
- <sup>53</sup> المرجع نفسه.
- <sup>54</sup> نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، 4/434.
- <sup>55</sup> التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، 14/179.
- <sup>56</sup> ينظر: الإتيان والمجيء فقه دلالتهم واستعمالها في القرآن الكريم: محمود موسى حمدان، مكتبة وهبة، ط1، ص 29.
- <sup>57</sup> سورة الحجر، الآيتان، 63-64.
- <sup>58</sup> سورة الإسراء، الآية 5.
- <sup>59</sup> البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي، 6/8.
- <sup>60</sup> المصدر نفسه، 6/9.
- <sup>61</sup> الكشف: الزمخشري، 2/649.
- <sup>62</sup> ينظر: التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، 14/25، ومعارض التفكير ودقائق التدبر: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، 9/551.

- <sup>63</sup> ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: برهان الدين البقاعي، 4 / 343.
- <sup>64</sup> البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي، 6 / 11.
- <sup>65</sup> إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود، 5 / 157.
- <sup>66</sup> التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، 14 / 26.
- <sup>67</sup> البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي، 6 / 9.
- <sup>68</sup> معارج التفكير ودقائق التدبر: الميداني، 9 / 551 وما بعدها.
- <sup>69</sup> المصدر نفسه، 9 / 552.
- <sup>70</sup> المصدر نفسه، 9 / 553.
- <sup>71</sup> سورة الإسراء، الآية 104.
- <sup>72</sup> معارج التفكير ودقائق التدبر: الميداني، 9 / 553.
- <sup>73</sup> سورة الإسراء، الآية 05.
- <sup>74</sup> سورة الإسراء، الآية 07.
- <sup>75</sup> سورة الإسراء، الآية 16.
- <sup>76</sup> سورة الإسراء، الآية 104.
- <sup>77</sup> التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، 14 / 179.
- <sup>78</sup> المصدر نفسه، 14 / 43.
- <sup>79</sup> للاستزادة يراجع: منهج السياق في فهم النص: عبد الرحمن بودرع، ط. كتاب الأمة، ص 41 وما بعدها.
- <sup>80</sup> الزمن في القرآن الكريم، بكري عبد الكريم، ص 296.